الفصل الخامس

القرآن والكتب الأخري والتفويض التشريعى للرسول

المبحث الأول

التفويض التشريعى للرسول فى القرآن الكريم

تمهيد : معني التفويض في القانون

فى القرآن الكريم يرد اسم الرسول مقترنا بالله بالنسبة للطاعة والاقتداء مما يقطع أن الله فوض رسوله بسلطة تشريعية فى نطاق أحكام القرآن.

ولكى نفهم حدود هذه السلطة نبدأ ببيان مفهوم التفويض التشريعى فى القانون. فالتفويض عملية قانونية وإدارية لها ضوابط محددة .ويكون التفويض من جهاز أعلى إلى جهاز أدنى ولا يكون فى المسائل التى يتمتع فيها الجهاز الأدنى بصلاحيات. ولذلك فإن الأعلى يفوض الأدنى فى صلاحياته المقررة له فى الدستور بشكل استثنائى لضرورة تقتضيها المصلحة العامة وكذلك ضغط الزمن، ولذلك فإن التفويض يكون محددا ولفترة محددة وفى مسائل يجوز فيها التفويض وإلا صار التفويض باطلا. ولابد أن يكون التفويض بقرار وهذا القرار لاسلطة للقضاء عليه مادام فى حدود الدستور اللهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بتفسير أحكام الدستور فى هذه النقاط. ومن الناحية العملية فإن التشريع اختصاص أصيل للبرلمان ويستطيع البرلمان أن يفوض رئيس السلطة التنفيذية

وهو رئيس الدولة فى نفس الوقت بعدد محدود من الصلاحيات التشريعية فى فترة زمنية محددة، كما يجوز لرئيس السلطة التنفيذية أن يمارس هذا التفويض دون قرار من البرلمان استنادا إلى أحكام الدستور. ولكن لما كانت السلطة التشريعية أصلا من اختصاص البرلمان وأن رئيس السلطة التنفيذية يمارس هذا الاختصاص بشكل استثنائى، يتعين على البرلمان أن يمارس رقابته على ممارسة رئيس السلطة التنفيذية لهذا الاختصاص، ولذلك يتعين على رئيس السلطة التنفيذية أن يقدم للبرلمان إذا لم يكن منعقدا بيانا بما مارسه من الاختصاصات فى أول اجتماع للبرلمان أو فى أول دورة للبرلمان الجديد، فإما أن يرفض البرلمان أو أن يقر ممارسات رئيس السلطة التنفيذية.

التشريع هو القانون عموما سواء صدر من السلطة الأصلية وهى البرلمان أو من السلطة التنفيذية فى أى صورة ومستوى. والتشريع هو وظيفة البرلمان فى إصدار القوانين. والسلطة التشريعية هى أهم سلطات الدولة ويمارسها البرلمان ويزاحمه فيها أحيانا السلطة التنفيذية استثناءاً على الأصل. وإذا مارست السلطة التنفيذية سلطة التشريع دون نص دستورى صريح تكون قد انتهكت مبدأ الفصل بين السلطات واستقلال السلطة التشريعية عن نفوذ السلطة التنفيذية.

وللتشريع مستويات ثلاثة: المستوى الأسمى هو التشريع الدستورى وتمارسه لجنة أو هيئة تأسيسية تضع الدستور. والمستوى الثانى هو القوانين المكملة للدستور أو القوانين الدستورية ويصدرها البرلمان بأغلبية خاصة لأهميتها وتعدل بنفس الطريقة التى صدرت بها وتكون أساسية لتفسير أو تطبيق أحكام دستورية وتسد فراغا تفسيريا أو تشريعيا فى نطاق أحكام الدستور،

لكن هذه القوانين الأساسية المكملة للدستور لا تعدل أحكامه، لأن تعديل الدستور يتم بأوضاع أخرى ينص عليها الدستور وتحيل فى الأغلب إلى الاستفتاء الذى كان أداة اصدار الدستور. وأما المستوى الثالث فهو التشريع العادى.

فالقوانين نوعان: نوع من عند الله وهى رسالة كل الرسل والنوع الثانى هو من فوض فيه رسول الله ﷺ أن يضع من التشريع ويلائم ما يرى وهذا تفضيل ومنحة لرسولنا الكريم وهذا رد على من ينكر السنة ويزعم الاكتفاء بالقرآن.

فمعجزة الرسول القرآن وهو الخاتم ومعجزته الأخرى أن سنته دائمة ونهائية، على عكس معجزات من قبله التى تنتهى بعد مرة أو أكثر (الشعراوى: المختار من تفسير الشعراوى للقرآن العظيم،ج٣ ص٥٨٧ – دار القاهرة ط ١ (٢٠٠٩).

أساس السلطة التشريعية للرسول ونطاقها

يجب التأكيد علي أن تفويض الرسول الكريم بالتشريع ، لايعنى الحديث عن سلطة تشريعية أوتفويض تشريعى للرسول أن القرآن يكمله بشر رسول، ولكن لما كان القرآن الكريم هو دستور المسلمين، فإن الرسول صلي الله عليه وسلم قد فوض سلطة تشريعية تؤدى وظائف السنة للقرآن. فلا يمكن الاكتفاء بالقرآن دون السنة، بل إن إسقاط السنة كما قد يحلو للبعض ممن يسمون القرآنيين يخرج أصلا من الملة لأن الشهادتين بوحدانية الله ونبوة محمد لا ينفصلان، كما نجدهما فى التشهد وفى الآذان.

والسنة كلها هى صلب التشريع النبوى المكمل للقرآن الكريم فى العبادات والمعاملات. و السبب فى تفويض الرسول أن القرآن آخر رسالة إلى الأرض،

وأن السنة هى استكمال التشريع من آخر الأنبياء وهى دليل اصطفاء.وتؤدي السنة للقرآن عددا من الوظائف الهامة.

الوظيفة الأولى أن السنة مفصلة لما أوجزه القرآن من أحكام، والثانية أن السنة مفسرة لما استغلق على البعض من أحكام القرآن والثالثة أن السنة هى مذكرة تنفيذية لأحكام القرآن والرابعة أن السنة مكملة لما يحتاج لاكتمال من أحكام والخامسة هى تطبيق أحكام القرآن تطبيقا عمليا وتجسيدها فى الحياة ونقلها من مستوى النصوص إلى التطبيق الفعلى. فقد كان الرسول قدوة وأسوة يقتدى ويتبع. ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ ولما كان الرسول بشرا أولا، ثم رسول فإن حياة الرسول وتعامله مع أحكام القرآن هى خير دليل على أن التكاليف فى مستوى الطاقة البشرية، ولذلك كان الرسول فى شقه الرسالى مشرعا للمسلمين، رغم أن بشريته لم تخرجه عن آداب النبوة. فكانت نفس الرسول تتوق إلى إنجاب ولد وهو حزن عليه بعد موته، لكنه كان يتعامل مع الرغبة فى الولد ومع وفاته بالنبل الذى كان قدوة لأتباعه. وعندما شرعت الصلاة والحج والزكاة وبقية العبادات جاءت النصوص عامة، أما السنة فقد فصلت الجانب التنفيذى والإجرائى لكل هذه الأحكام ثم جاء الفقه ليضع الصيغ النهائية المستمدة من القرآن والسنة والاجماع والقياس وسلوك السلف الصالح.

و أسانيد هذه السلطة التشريعية فى القرآن كثيرة ونصوصه قاطعة. ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾، (الحشر ٧) ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ (النساء ٥٩) وقوله تعالى ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ**

حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء ٦٥). وعندما كلف الرسول بالبلاغ حدده النص القرآنى تحديدا قاطعا بقوله تعالى﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا**﴾. (الأحزاب٤٥،٤٦) وقد شدد القرآن على وظيفة البلاغ لكل الأنبياء والرسل ولم يطلب منهم الهداية لقوله تعالى ﴿ **لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ**﴾. (البقرة ٢٧٢) وقوله تعالى ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ (يونس ٩٩) ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ**﴾(هود ١١٨).

فالارتباط الوثيق بين الله ونبيه واختياره سبحانه لأنبياء الله ورسله ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ**﴾ (الأنعام ١٢٤) يجعل الرسول متحدثا ومبلغا عن الله، والله يراقبه ومتأكد من رسله، ولذلك أنب الله الذين تقولوا على عيسى عندما قال ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** ﴾ (المائدة ١١٦).

هذه الأسس تؤكد التفويض الإلهى لرسوله بالتشريع فى حدود القرآن ولذلك فالسلطة التشريعية للرسول هى سلطة تكميلية لاغنى عنها لإيضاح النص القرآنى وتجسيده فى الواقع وبيان الفاصل بين ما هو بشرى وما هو وحى من الله.

ولكن القرآن يخبرنا أن السنة والقرآن من مصدر إلهى واحد بقوله تعالى ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ (النجم ٣،٤) فالنص يتجه مباشرة إلى القرآن المنزل والذى كلف الرسول بإبلاغه بنصه. ولكن إذا وسعنا الدائرة لمجرد التحليل والفهم، وجدنا أن الرسول ينطق بثلاثة، القرآن المنزل الذى أوحى الله به إلى الرسول عبر الروح الأمين جبريل وهو الذى تعهد الله سبحانه بحفظه مبنى ومعنى إلى قيام الساعة ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر ٩) فهل تعهد الله بحفظ المصدرين الآخرين مما نطق به الرسول الكريم الحديث القدسى والحديث النبوى، وهو أحد مصادر السنة الثلاثة : القولية والفعلية والإقرارية. من الناحية الحرفية، كان التعهد بالحفظ للقرآن وحده دون الأحاديث القدسية والنبوية، ولكن كل ما نطق به الرسول هو وحى يوحى، وهذه النتيجة تتسق مع كون الرسول أميا بينما العلم فى الأحاديث لا تتناسب مطلقا مع حالة الأمية التى تعنى انقطاع القدرة على تحصيل العلم عن طريق القراءة والكتابة، فهو علم لدنى لاعلاقة له بهذه الطريقة فى التحصيل. ولما كانت الأمية حالة خاصة بالرسول وهى تتصل بصلب العقيدة ومصداقية النص القرآنى، فقد خصص الله موضعا خاصا بالتعلم تعظيما له فى تحصيل العلم كما أن أول مانزل على محمد عليه الصلاة والسلام هو الأمر بالقراءة وهو يعنى ثلاثة أمور بليغة : الأمر الأول هو التأكيد باعتراف الرسول منذ بداية البعثة أنه أمى والأمر الثانى التدليل بأن القراءة هى الطريقة العادية للتحصيل . الأمر الثالث أن الأمى لا يعلم شيئا بسبب أميته، فإذا كان النبى مدينة العلم رغم أميته فهو من عند الله وهذا العلم اللدنى أشار إليه القرآن الكريم فى قوله ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ وقوله ﴿**فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ**﴾

أى أن الله جعل العلم (دنيويا أو لدنيا) معيار التمايز بين المخلوقات وكان هذا العلم اللدنى الذى منحه الله لآدم أوراق تميزه وترشيحه لكى يكون

أجدر من الملائكة بالخلافة فى الأرض. ثم وجه القرآن إلى أن الإنسان الذى كلف بالخلافة فى الأرض هو نفسه الذى قبل الأمانة التى لم تعرض عليه لضعفه، وأبت المخلوقات الأقوى منه أن تحملها وأشفقت على نفسها منها، فكان الإنسان ظلوما لنفسه وجهولا بأبعاد وعظم مهمته. هذا الاختيار كان سببا فى أن ميز الله الإنسان عن المخلوقات التى اختارت عبادته عبادة تسخير، فخضع الإنسان العاقل المختار الحر للمساءلة دون سائر المخلوقات، ومن هنا كانت الجنة والنار مادام الإنسان خلق خطاءا وأنه هو الذى يختار الإيمان أو الكفر. ثم أن الله احترم إرادة الإنسان فى الإيمان والكفر كما احترم إرادته فى التصرف فى ماله واحترم ذمته المالية، وأوضح القرآن أن الله يحب أن يقبل العبد عليه بإرادته وليس رغما عنه مادام الإيمان اختيارا وليس قهرا، بل لا يمكن أن يكون قهرا، وأن يتقرب اليه بأكثر الأشياء قربا الي نفسه وأكثرها تعلقا بها من جانب الانسان وهو المال ﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾

الجدل حول أمية الرسول وحول موقع السنة.

فالقرآن الكريم هو التشريع الأسمى وإسهامات الرسول الكريم هى التشريع المكمل. ونلقى بعد ذلك الضوء على جانبين هامين فى هذا السياق.

الجانب الأول هو الأمية، ولذلك لا يليق ولايخدم العقيدة أو الرسول إنكار هذه الأمية، لأن الإنكار على سبيل الغيرة على نبى الأمة يضرب صلب العقيدة لأنه يعرض القرآن للمزاعم التى رددها المشككون منذ نزول القرآن.

الجانب الثانى هو المتعلق بفريق إنكار السنة وهم الذين أطلقوا على أنفسهم القرآنيون، ولسنا بحاجة بعد لهذه الشروح فى علاقة السنة بالقرآن وعلاقة الله برسوله وتأكيد الرسول على أنه ترك فى المسلمين بعد موته ما ان اتبعوه لن يضلوا أبدا كتاب الله وسنة رسول الله.

لماذا هذه السلطة لمحمد ﷺ دون سابقيه؟

لوحظ أن القرآن الكريم قد استخدم فى خطابه إلى الرسول كل الصور المتصورة، فخاطبه باسمه محمد ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ**﴾ (آل عمران ١٤٤) ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ (الفتح ٢٩) وخصص سورة ضمن سور القرآن باسم محمد ولم يشبهه فى ذلك إلا يوسف، أما موسى فرغم كثرة الإشارات إلى موسى وبنى إسرائيل بصورة لافتة، فى أكثر من ثمانى سور، إلا أنه لم يخصص باسم موسى سورة من هذه السور.

وتحدث الرسول عن نفسه فقال "أدبنى ربى فأحسن تأديبى" (الحديث)، وامتدح الله رسوله بقوله ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم ٤) وخاطبه بالنبى عدة مرات ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ**﴾ (الأحزاب ٥٩) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ (الأحزاب ٤٦).

وخاطبه سبحانه بالرسول ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ (المائدة ٦٧) ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾ (الحشرالآية ٧) وتهكم عليه الكفار بأن نادوه ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ**﴾ وقوله تعالى ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ (الآحزاب ٢١).

ولما كان الرسول هو آخر الأنبياء والمرسلين وكان القرآن هو آخر كتب السماء إلى الأرض مكملا وموضحا وشارحا وشاملا وخاتما لكل الشرائع السابقة التى كانت جزئية فى المخاطبين وفى الزمن وفى الأحكام فكان القرآن آخر رسالة السماء إلى الأرض، مصدقا لما جاء فى الكتب السابقة ولذلك لم يفرط فيه من شئ لأنه لاكتاب بعده إلى قيام الساعة، فقد فوض الرسول بالتشريع المكمل وفق الأصول الكلية والأعمدة الرئيسية للقرآن.